قهوة وقصة في الدير

تحقيق : محمد عبدالحليم عبدالله

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى اجتاز فيها الى هذا العالم الغامض حيث تطل النوافذ المقفلة الخضراء والأبواب الحديدية السوداء على الحديقة المزهرة .. سعيت الى هذا المكان منذ عامين بدعوة من الأب الشاب ج . مونو، حيث تناولت الغداء مع الرهبان . فى دير الآباء الدومنيكان فى صحراء العباسية .

كنت أحمل فكرة شيقة وأعرف ثلاثة أشخاص هناك . وأصعد طريق شارع مصنع الطرابيش فى يوم جمعة دافىء . هناك عمال يعيدون رصف الطريق وعمال يصلحون عددا كبيرا من سيارات النقل وقفت على طول الشارع كقطار مفكك العربات . والشارع آخذ فى الارتفاع . هناك أسوار لمدارس ومصانع وهناك خرائب لحقتها يد العمران . الخزلة العميقة والسكون الذى لايقطعه الا همس القراءة أو العبادة بدا يتصل بضجيج الحياة .

وما أن وصلت الى باب الدير ولاح لى مبناه ذو الطبقتين على يسارى حتى فطنت على يمينى الى شىء آخر يستحق الانتباه . فعلى مدى ارتفاع الأشجار المغروسة فى حديقة الدير والتى تحدد عمره . هناك مدخنة لمصنع مقابل .. الدخان ينبعث منها كثيفا ملحا يشير الى العمل كأنه نبض القلب . فرأيت على يمينى طريقا يؤدى الى الله وعلى يسارى طريقا يؤدى الى الله : « العلم والدين » لم يشعر العلم بدخانه وضجيجه وحركته فى المصنع بغربة

الدين عنه .. تجاورا فى الصحراء من قديم قبل أن تزحف المبانى هناك . وعندما يجن الليل وتسكن حركة العلم ويكف المصنع عن التدخين تكون حركة الروح فى المبنى المقابل على أشدها . ففى مكتبة الدير أو حجرات (الآباء) بحث ودراسة عن الله والروح وعلاقة الانسان بالانسان . وفلسفة وأدب . وترجمة وتأليف ..

وعندما اجتزت الباب تسلل السكون الى نفسى . سكون لا وحشة فيه . تؤنسه فى صمت مطمئن روح من الله . ولم يسألنى أحد « من ؟! ولا الى أين ؟! » لأن أغراض المقيمين والوافدين يخدشها مثل هذا السؤال .. على يسارى الحديقة بأزهارها التى ترنو الى الله الذى عطرها .. وبأشجارها ومماشيها ومقاعدها الخشبية . وبعض طيور لم أعرف اسمها كأنها تصلى .. حومت حول عرائش الشجر وزقزقت فى السماء الصافية .

والمبنى القرميدى الأحمر ذو الأبواب الحديدية السوداء والبللور السميك . كان على يمينى . فعز على أن ابدد سكونه حتى يضرب الجرس . ووصلت روحى الى تلك النقطة التى يصعب فراقها . نقطة التجرد والانطلاق والسعة والقدرة . لحظة لا تزيد على ثوان يشعر فيها الانسان (الماء والطين) أنه تخطى قيوده المادية التافهة القوية وأنه قادر على أن يتنبأ أو يخلق أو يطير . ومضة برق وتنقضى . كأنما لتؤكد للانسان صلته بالأصل الأعظم .

ولا يلبث الفرق العظيم أن يتجلى للعين من جديد . بين الأصل الخالد والكل الأكبر وبين الفرع الفانى والجزء الصغير ..

وتنهدت كأنما ألقت بى سفينة الفضاء الى الأرض التى كنت أراها منذ قليل كرة نصفها فى الظلام ونصفها فى النور . وصعدت الدرج نحو الباب الحديدى فلم أر فى البللور حتى خيالى. ودندن الجرس حين ضغطته ثم ساد الصمت . صمت مشع كان يأتى من الداخل ويخترق حديد الباب . اختلط بالصمت الخارجى المظلل على الحديقة والمماشى وواجهة المبنى كروافد تصب فى مجرى النهر .

ـ الأب قنواتى من فضلك .

ـ آه .. تفضل من هنا .

وتهلل وجه جاد جدا وديع جدا مصرى جدا . لرجل اسمه « رمضان » كأنما لمست كل صلوات « الآباء » الستة عشر وجهه مثل كف شرقى ففاض بالأمان الذى يعرف الخوف والطاعة التى لا تعرف الملل . وان بدا فى عينيه معنى من « العزلة » لم أره فى عيون الآباء .

فى حجرة الاستقبال منضدة صغيرة مربعة عليها مفرش مخملى زيتى . جلست أرسم على وبره حروفا كأنها اسمى حتى أخرجنى من وحدتى صوت مرح وقور متدفق أعرفه . نبراته تشبه خطوات صاحبه . سريعة منكفئة الى الأمام . مبتسمة تعرف طريقها . لها صلة ـ بحكم المولد ـ بمدينة

الاسكندرية .. صاحبة المكتبة الشهيرة فى التاريخ ومدرسة أفلوطين الفلسفية. هذا الأب من مواليد هذه المدينة .. رئيس الدير . الأب قنواتى . الصديق الحميم لابن سينا العالم والفيلسوف العربى والذى كتب عنه وحاضر .

ـ اهلا .. هل اطلب القهوة ؟ .. حالا سيجىء كل الآباء .. هل رأيت المكتبة ؟ .. ماذا تعمل الآن ؟ .. لقد زرتنا هنا وكنت غائبا ..

نظرت اليه وأنا ابتسم فهو فى نشاط سن العشرين . يمكنه ان يتكلم فى عدة اشياء فى وقت واحد . ذلك الصيدلى الفيلسوف الأديب . وتركنى وانصرف ليرد على التليفون ثم عاد ومن بعده الأب ج . مونو . صديقى الذى عرفته منذ ثلاث سنوات . ثم الأب ج . جومييه الذى رأيته للمرة الأولى .

صرنا اربعة . كل منا يأخذ ـ بالتساوى ـ ضلعا من مسطح المنضدة وبيننا اربعة اقداح من القهوة وضع فيها السكر بالتساوى .

الأب مونو شديد الاطراق . أصغرهم سنا . لم يعد الثالثة والثلاثين . ذلك الباريسى الذى ناداه الله (على حد تعبير الأب قنواتى) المولود على مقربة من ميدان « الكونكورد » .. ميدان الوفاق .. ودار الأوبرا . يتكلم العربية بدرجة تقع فى الوسط بين طلاقة الأب قنواتى الإسكندرانى وعكسها فى الأب جومييه ..

كنت فى مواجهة الأب جومييه على المنضدة . لم أستطع أن أثبت نظراتى فى عينيه طويلا فهو وان كان يخطو نحو الخمسين ذو نظرات فى حدة المثقاب . وجهه المربع وذقنه العريض وابتسامته الكبيرة على فمه الواسع وشيبه المركز على الفودين وعيناه الثابتتان فى لون سماء البحر ـ جعلتنى أشعر أننى أمام شخصية (أعيد خلقها) صورها روائى أو رسام . تكمن فى ملامحها المعرفة البعيدة الأعماق .

أما الأب مونو فهو على عكس الأب جومييه .. لم أر لون عينيه ولو أننى جالسته عشر مرات . يميل وجهه الى الاستطالة ودقة التكوين . ويلون الحياة وجهه اذا ما شرع فى الحديث . تثير ملامحه فى النفس ذكريات التضحية . ويحدثك كأنه يقرأ فى كتاب . ويشعرك أنه يقوم بواجباته الى حد الارهاق . لا يبالى بشىء الا الواجب .

بين هؤلاء الآباء الثلاثة تركت روحى تتنقل . وامتلأت عينى بصورهم كما تمتلىء بشعاع الشمس . وبدأنا نتكلم فى الأدب فاذا بهم قد قرأوا كل مهم فى أدبنا الحديث والقديم .

فقد قرأ الأب جومييه شعر عباس بن الأحنف « ترى هل يحفظ له كثيرا كثير من شعرائنا الشبان ؟! » . ويكتب الأب مونو بحثا كبيرا عن العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الفارسية وترجم الأب قنواتى دموع ابليس للوزير السابق الأستاذ فتحى رضوان ..

* * *

سألت الأب قنواتى عن اسمه بالكامل فقال : « جورج شحاته قنواتى » ، ثم استطرد فى مرح وقـور . واذا اردت تعريب الاسـم فهو جرجس شـحاتة قنواتى . فاسـتطردت انا منتهزا للفرصـة .

ـ واذا عربنا اسم الأب مونو واسم الأب جومييه فماذا تقول ؟

رد الأب قنواتى :

ـ جـاك جومييه يمكن ان يكون « زكى جمعه » ..

وضحكنا .. ولمعت عينا الأب جومييه سرورا باسمه الثانى . ووقعنا فى مشكلة حين اراد الأب قنواتى تعريب اسم الأب جوردان مونو .. استعصى على التعريب. احتفظ بشخصيته فى استحياء شديد كصاحبه الطيب تمـاما . قلت للأب قنواتى :

ـ حدثنا عن الرواية التى احببتها .

أطرق نحو المنضدة ذات الغطـاء المخملى . رسم بأصبع يده التى مارست وتمارس الكيمياء حتى الآن حـروفا مبهمـة ثم رفعه الى عينين اضنتهما الحملقة فى انابيب الاختبار وقال :

ـ قصة القرية الظالمة .

قلت :

ـ ذلك طبيعى فهى من وجهة نظر مؤلفها تعطى موقفا انسانيا عظيما . موقفا دينيا واجتماعيا فى وقت واحد .

قال الأب قنواتى :

ـ لذلك فقد كتبت عنها بحثا طويلا القيته فى مؤتمر الأديان الذى عقـد بمدينة ((روما)) سنة ١٩٥٦ .

كما أننى على الرغم من مشاغلى فى الفلسـفة والكيمياء حللت وكتبت عن (حديقة الله) لجبران خليـل جبران وترجمت كما قلت لك دمـوع ابليس لفتحى رضوان .

وانا أحب الأدب .. لا تظن أن الأدب والفلسفة متناقضان ..

فضحكت :

ـ انهم أبناء عمومة . بل بالعكس. لقد قال لى بعض أدبائنا الكبار . ان هواية (العلم) من أعظم الطرق التى تعيد ترتيب فكر الأديب . آه .. ربما ووجدانه . واذا كانت العلوم ذات أثر مؤكد فى انتاجنا الأدبى فما بالنا بالفلسفة وعلم النفس .

ـ ان المعارف الانسانية تكون كلا عظيما . نعم . وقد قرأت الجيل الأول كله . وقرأت الجيل الثانى والثالث.. وانت قد رأيت مكتبتنا .. ثم ان القراءة شىء حبيب الى نفسى . غير أنى أعتقد أن صديقك الأب مونو قـرأ فى الأدب أكثر منى ..

ونظرت الى الأب مونو فاذا بتواضع الأب قنواتى قد أحرج تواضـع الأب مونو . فضحك وهو مطرق وفرك كفيه الكبيرتين المستطيلتين فقلت له :

ـ اذن .. آن الأوان لتحدثنا عن نفسك .

رد الأب فيما يشبه الاحتجاج :

ـ نفسى ..

استدركت :

ـ أقصد تاريخ حياتك .

ـ أتممت دراستى الثانوية بباريس ثم التحقت بالحقوق لمدة سنة وبالآداب لمدة سنتين فى جامعـة السربون .

وطبعا .. لم أكمل الدراسة بل التحقت بالكلية الاكليريكية وتحولت الى الدير. فدرست الفلسفة واللاهوت ثم رحلت الى تونس حيث درست اللغة العربية. وجئت الى مصر سنه ١٩٦٠ .

ـ من أحببت من كتاب وطنك ؟

ـ كان لابد أن أقرأ . ومن الصعب أن يتذكر الانسان كل ما قرأ . انما يتذكر الانسان بعض ما قرأه اذا كان هناك ما يدعو . غير أنى أحببت بلزاك وستندال وفلوبير ومن المعاصرين أندريه مالرو وزير الثقافة . وجورج برنانوس. وأحببت كامى جدا فى قصة الطاعون ..

ـ ومن قرأت من كتابنا ؟

ـ معظم كتاب الجيل الأول . ومن الجيل الثانى نجيب محفوظ ويوسف السباعى ويوسف الشارونى .. وسأكتب ترجمة طويلة عن حياة القصاصين المصريين الذين أحبهم من الجيل الثانى وسأنشرها باللغة الفرنسية . وأعتقد أن ما نكتبه عن الأدباء العرب يقرأ كثيرا خارج البلاد العربية ..

وأمن الأب جوميبه على قوله . ونظرت اليه . كان كما رأيته للوهلة الأولى ابتسامته الكبيرة على فمه الواسع وعيناه الثاقبتان ترقبانى كنجم قريب . سألته :

ـ ما تاريخ حياة الأب ؟

ـ ولدت فى باريس بالقرب من (الاتوال) . أتممت دراستى الثانوية ثم دخلت مدرسة الهندسة بباريس . ثم الدير فى بلجيكا ثم مدرسة اللغات الشرقية فى السربون حيث تعلمت علوم اللغة العربية والأدب .. وأنا من أسرة تحب الفن .

ـ الفن ؟!

ـ نعم .. الفن ..

ـ الفن التشكيلى ؟!

ـ نعم ..

وصمت . ونظر لوهلة الى اللوحة المرسومة فى النافذة .. نافذة الحجرة. كان فى اطارها لوحة الهية من السماء والحديقة . زرقة وخضرة وألوان أخرى . ثم ألقى نظرة الى .

ـ نعم .. جدى لأمى كانا رساما . وأختى كانت رسامة ..

سرح خاطرى .. انا .. قلت فى نفسى :

الفن جميل يؤدى الى الله . كما يؤدى العلم والدين . أى شىء تجلو به مرآة القلب حتى يرى ربه .. فان الله يحبه.. علم او دين او فن او أدب .. صلوات اختلفت أنواعها . تحول الفحم الى ماس شفاف متعدد الزوايا يعكس ألوان الطيف وأضواء النجوم . فقط .. ينبغى أن نكون جادين فى أعمالنا . باحثين عن الجوهر الحقيقى للعمل والنفس .. لفصل الموجب بالسالب لتنبثق الشرارة المقدسة .

وعدت أنظر الى الأب جومييه الذى قال :

ـ انا سأحدثك عن شىء طريف غير بلزاك وجرين وكلوديل وكامى وسارتر. سأحدثك عن افريقيين عرب وافريقيين خالصين كتبت عنهم باللغة الفرنسية.

وتركنى وقام ليعود بكراسته ذات جلد فى لون ماء البحر . فتحها وأخذ يقرأ ويعلق ويتكلم قال :

ـ كتبت عن محمد ديب .. ومولود فرعون . وهما من الجزائر العربية .

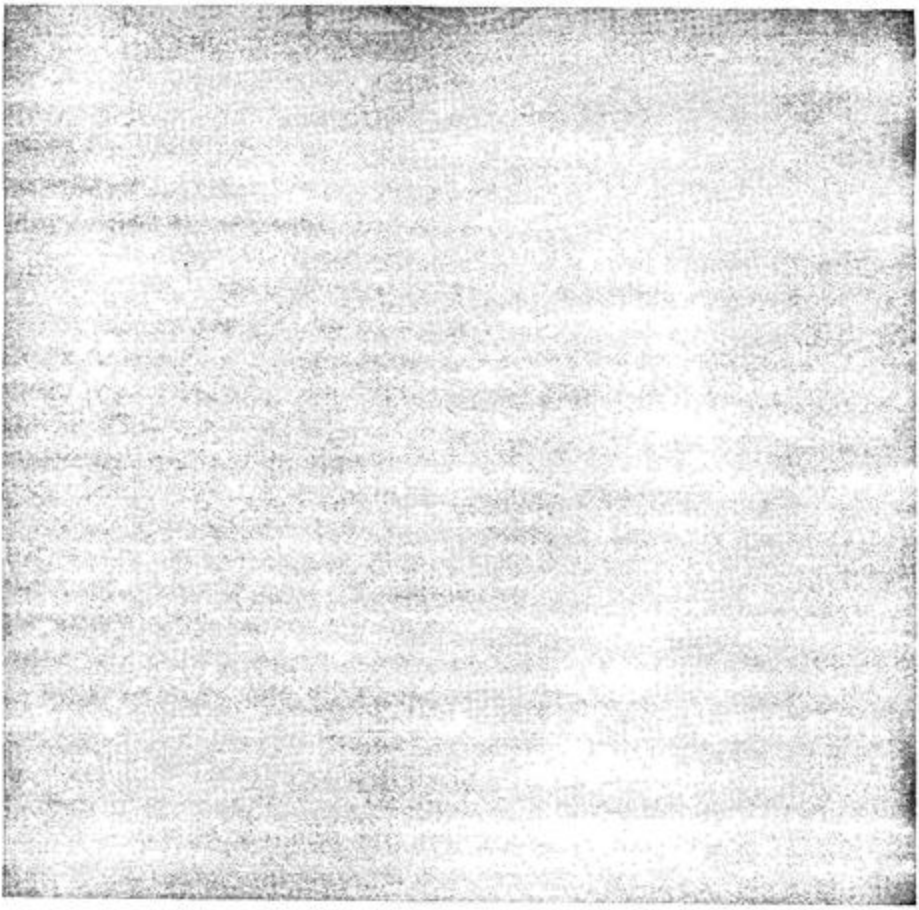

● وصمت . ونظر الى اللوحة المرسومة فى النافذة ●

وعن أديب من السنغال اسمه حميدو خان له رواية بعنوان «المغامرة الغامضة».

وكتبت عن معمرى من نيجيريا وهو كاتب تقدمى عنده حساسية شديدة فى تصويره للجو العام وللبيئة اكثر من الشخصيات . وعن روائى من السنغال اسمه عثمان سامبينى يصف حياة العمال وأدبه فى الدعاية اثقل وزنا منه فى ميزان الأدب . وعن قصاص من جزيرة (هايتى) تلك التى ينتسب اهلها الى الافريقيين بحكم الهجرة والأجداد . له رواية اسمها (الأشجار الموسيقية) فيها حنين للوطن .. افريقية .. وفيها تبشير بالماركسية .

وقرات لكم جميعا .. كل الأجيال.

وكتبت عن نجيب محفوظ وثروت أباظة الذى اعجبتنى له جدا قصة هارب من الأيام . لأن فيها شيئا وراء الواقعية .

ـ واقع فوق الواقع .

ـ نعم . هزتنى ..

ـ وانا ايضا ..

وهززت راسى فى سرور وانا انظر الى الآباء من حولى . كنا فى حديث لذيذ كجزء من العبادة . نبحث عن حقيقة النفس عن طريق الأدب . وتذكرت شخصية أحبها .. احبها جدا .. ذكرتها لأن فيها صفة مشابهة وصفة عكسية من الرجال الذين انا معهم الآن. آباء حليقو الذقون وهبوا عمرهم لله والروح . والشخصية الأخرى كانت ذات لحية طويلة . فى بياض الزبد . كقديس لم يقص منها شعرة . وكان يحب الله فى الناس ويحب الناس فى الله . ذلك هو ليو تولستوى . وسألتهم فجاة :

ـ ما رأيكم فى تولستوى ؟!

ردوا ثلاثتهم :

ـ عظيم ..

سألت الأب مونو :

ـ رايك بالتفصيل .

ـ احبه أديبا وانسانا .

سألت الأب قنواتى . فقال :

ـ مثل راى الأب مونو .

اما الأب جوميبه فقد قال بابتسامته الكبيرة :

ـ هو كانسان عندى فى المكان الأول لكن كفنان فان دستويفسكى أحسن منه عندى . ودستويفسكى هو الذى قال : « اذا كان الله غير موجود فكل شىء مباح » ..

كان منتظر أن أنضم اليه . لكننى انضممت الى الأب مونو . قلت :

ـ لقد شغلنى كاتب (الحرب والسلام) والذى احب الله والانسان عن أن أوازن بينه وبين دستويفسكى .. الذى .. أحبه .. ايضا ..

ضحك الآباء الثلاثة ..

ونظرت فى ساعتى .. كان الظهر قد حان واحسست أن الوقت يمكن ان يمر بسهولة حتى لو بقيت لنهاية اليوم ولكن الآباء كانوا على موعد ..

خرجت وهم معى حتى الباب . وهبطت السلم الى صمت الحديقة وأزهارها . وكان الجو عبقا بكل ما يسر . كنت مرتاحا . احسست اننى جلت جولة فريدة . وعند الباب كانت مدخنة المصنع ترسل دخانا غزيرا . والشارع يموج بالحركة والشمس تفرش الأرض والتلال . وانا اردد بينى وبين نفسى آخذا طريقى الى المدينة :

« ما أكثر الطرق التى تؤدى الى الله . ما أكثر الطرق التى تؤدى الى الله » ..